

من شروط كلمة التوحيد: المحبة

..... وأما الشرط الخامس: فهو المحبة. المؤمن يُحِبُّ الله، ويحب رسوله. وكذلك يُحِبُّ عبادة الله، ويحب أهل الله، وأولياء الله، وإذا أحب الله تعالى تعبد له، وإذا أحب العبادات تقرب بها، وإذا أحب النبي -صلى الله عليه وسلم- أطاعه واتبعه، وإذا أحب العبادات أكثر منها، وإذا أحب العبادات أبغض ضدها.. وهو المعصية. فمحبة الله -تعالى- ومحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومحبة عبادته من أوجب الواجبات على المسلم، عليه أن يقدم محبة الله ونبيه على كل محبة. تعرفون الحديث الذي في الصحيحين؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم- { ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ } وهذه الثلاث متلازمة.. إذا حصلت واحدة منها تبعتها الأخريات، فالأصل.. هو المحبة الأولى؛ التي هي: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وقد أمر الله -تعالى- بتقديم محبته على محبة كل شيء؛ على محبة الأموال، والبنين، ونحوها، تفرعون قول الله تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } . ذكر الله هذه الأصناف الثمانية تفصيلا، والمراد: ما سوي الله، أي: مَنْ قَدَّمَ محبة غير الله على محبته، صدق عليه هذا الوعيد: { فَتَرَبَّصُوا } مثل الله -تعالى- بالأقارب: { آبَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ } ثم مثل بمتاع الدنيا: { وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا } يعني: مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، فإذا قَدَّمْتُمْ شيئا من هذه الثمانية على محبة الله، ومحبة نبيه، ومحبة الجهاد في سبيله، والعمل له؛ فإنكم مَتَوَعَّدُونَ بذلك الوعيد الشديد. ثم نقول: إن هناك الكثير يَدْعُونَ محبة الله، وَيَدْعُونَ محبة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ولكن نقول لهم: أين علامات المحبة؟! وأين آثار هذه المحبة؟! إنما هي دعوى!! والدَّعَاوَى إن لم يُقِيمُوا عليها بَيِّنَاتٍ، أَرْبَابُهَا أَدْعِيَاءٌ! فلذلك لا تُقْبَلُ هذه الدعوى؛ حتى يكون لها بَيِّنَاتٍ؛ وحتى يكون لها علامات. رُوِيَ عن بعض السلف أنه قال: من ادعى محبة الله ولم يُوافِقه فدعواه باطلة. الموافقة هي: اتباع ما أمر الله، وطاعته، وامتنال الأوامر، وترك المناهي. هذا حقيقة الموافقة. وسُئِلَ ذُو النُّونِ المصري قال له رجل: متى أحبُّ ربي؟ قال: إذا كان ما يُبْغِضُهُ أَمَرَ عندك من الصبر. وهذا كمثل، يعني: أن الإنسان إذا أحب الله تعالى.. كره المحرمات، وأبغضها، وابتعد عنها؛ ولو كانت لذبة عند النفس، فينفر منها، وَيَسْتَمِيزُ من سماعها، فيكره الغناء؛ لأنه مُحَرَّمٌ؛ ولو أن النفس تميل إلى سماعه، ويكره الزنا؛ ولو كانت النفس تَلْتَدُّ به، ويكره المسكرات؛ ولو كانت أُشْرَبَتْ لذبة، وهكذا جميع المحرمات.. تكون مُبْغِضَةً عنده، أَمَرَ عنده من الصبر. يقول بعض المشايخ: إذا كان ما يبغضه أَمَرَ عندك من الصبر.. كان ما يُحِبُّه أحلي عندك من العسل. بمعنى: أن المؤمن الذي يُحِبُّ الله -تعالى- يتلذذ بطاعته، يجد للطاعة حلاوة، يجد لها طلاوة، يجد لها لذة في قلبه، ولذة في بدنه، أَلَذَّ من السَّلْوَى، أَلَذَّ من العسل. وهذا هو الذي وقع لكثير من المؤمنين الأتقياء الذين يتلذذون بالطاعة؛ وعلى رأسهم.. النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنه يلتذ بالعبادة، فِرْوَى عنه أنه قال: { الظمان يروى، والجائع يشبع، وأنا لا أشبع من الصلاة }؛ وذلك لأنها محبوبة عند الله -تعالى- فيرى محبتها؛ ولو كانت ثقيلة على النفس، وكذلك أتباعه -صلى الله عليه وسلم- يتلذذون بقيام الليل؛ ولو كان فيه تعب؛ ولو كان فيه سهر، ومشقة، وصعوبة، يتلذذون به، ويجدون له راحة في نفوسهم. فهذا دليل على أن المحبة أترُّ من آثار الإيمان، وأن مَنْ أَحَبَّ الله -تعالى- أطاعه وامتثل أمره. ومن علامات محبته -كما عرفنا- يُبْغِضُ ما يكرهه الله، وما حَرَّمَهُ. فمن أحب أعداء الله فليس بصادق في أنه يحب الله؛ ولذلك يقول: ابن القيم في النونية: أُنْجِبْ أعداء الحبيب، وتدعي حُبًا له؟! ما ذاك في الإمكان حُبُّ الْفَرَّانِ، وَحُبُّ الْغَنَاءِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ ليس يجتمعان صدق! فإنه من أحب الله حُبًّا شديدا؛ فإنه يمتنع أن يُحِبَّ غيره، ومن أحب طاعة الله لم يُحِبَّ معصيته؛ بل أبغضها، ويقول بعضهم: تَعْصِي الإله، وأنت تَرْعُمُ حُبَّهُ؟! هذا عجيب في الفعال بدعي! لو كان حيك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيعٌ ذكر لنا بعض التلاميذ: أن مدرسا كان يُدَرِّسُهُمْ في المدارس الليلية اعترف، وقال: أنا أعترف أنني لا أصلي؛ ولكن يكفيني أنني أحب الله، وأحب نبيه، إذا أحبته فإنه لا يعذبنني؛ ولو أنني تركت الصلاة!! فنقول له: إن هذا كاذِبٌ، كَذَّبَ في هذه الأقوال؛ فإن من أحب الله امتثل أوامره، مَنْ أَحَبَّ الله أطاعه، وكذلك مَنْ أَحَبَّ الله كره معصيته، من أحب الله ابتعد عن المحرمات، وتقرب إليه بالطاعات، دليل ذلك من الحديث الذي ذكرنا، وهو قوله -صلى الله عليه وسلم- { وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ } فكثير من الصالحين يُعَدِّبُونَ.. ولا يشركون بالله! يقال لهم: إما أن تطيعنا في عبادة غير الله؛ وإلا أحرقتك، ومَرَّقْنَا لحمك! فيصبر على الإحراق وعلى تمزيق اللحم دون أن يطيعهم في معصية الله؛ حتى ولو كانت من المعاصي التي دون الكفر؛ لو أكره على الزنا لَصَبَّرَ ولو عُذِّبَ، وكذلك لو أكره على شرب الخمر لَصَبَّرَ على الإكراه ولو قُتِلَ. وهكذا بقية المعاصي؛ لأنه يعرف أنه لا قدرة له على غضب الله، ولا على مقته، ولا على عذابه، فيقول: عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، سخط الناس أهون من سخط الله؛ لأنني إذا أسخط ربي عاقبني عقوبة ليس تنتهي، وهي عقوبة الآخرة، وأما عقوبة أهل الدنيا فنهايتها الموت، والموت لا بد منه، فيتحمل ويصبر. ومن العجب أن كثيرا من أهل البدع ومن أهل الشرك، يصبرون على العذاب الذي يُعَدِّبُونَ به؛ لأجل أن يتركوا شركهم؛ ومع ذلك يتمسكون به. فكثيرا من النصارى يتمسك بنصرانيته؛ ولو قُطِعَ لحمه، وكثيرا من اليهود يتمسك بيهوديته، وكثيرا من الرافضة يتمسك برافضيته؛ ولو عُذِّبَ؛ ولو أُوذِيَ؛ ولو جُلِدَ؛ ولو قُطِعَتْ أوصاله ما تحول عن عقيدته، رَبَّنَا الشيطان لهم هذه العقيدة! وهذا الشرك. وإن كثيرا من المؤمنين الذين هم ضِعَافُ الإيمان -فمثل هؤلاء لا شك أنهم لضعف إيمانهم- ينحرفون مع أول من يدعوهم؛ ولو لم يكن هناك إكراه؛ وإنما هو تسويل، وتزيين؛ فيتركون طاعة الله وعبادته، ويعبدون أهواءهم، وشهواتهم، ودنياهم، ويتركون عبادة الله -تعالى- وطاعته.